مذهبط من سمائه

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب محمد طه الحاجري

حدثني صاحبي ، قال :

كان فيمن صحبت من الناس في أوائل الشباب شاب في عنفوان السن ، وكان من أهل اليسار والنعمة ، أنيق اللبسة ، متدفق الفتوة ، كثير المرح ، ولكنه مع هذا على خير ما يكون عليه الرجل السعيد ، فيما أعرف أنا من كلمة السعادة ، سلامة صدر ، وطهارة قلب ، ومتانة خلق ، وبعدا عن سفاسف الحياة وصغائر الشباب .

وكان أول أمري معه أني لم أكد أعرفه معرفة السمع والبصر ، حتى أحببته حب الرأي والعاطفة ، كأنما كان بين روحينا منذ البدء آصرة ، كما يقول علماء الروح ، وإن فرقت من بعد بيننا شتى الفوارق الاجتماعية ، حتى ما كان لمثلي أن يصحب مثله . ولكنا ما إن تراءينا حتى تعارفنا فتآلفنا فتحض كل صاحبه وده وخلط به نفسه ، فكان عيبة سره ومستقر أمره وراحة صدره . وذهبنا نتساقى كؤوس الصداقة الصادقة ، لايشوبها شائبة غرض ، ولا يعيبها ما تخضع له علاقات الناس من أهواء النفوس المختلفة ، وعلالات الحياة المادية المنيفة . ومضينا على ذلك عهدا طويلا لا أجد له في قلبي إلا كل محمدة ، ولا أنسم عنه بين الناس إلا عطر الأحاديث . إذ كان رجلا كامل الرجولة ، فاضلا على أتم معاني الفضيلة ، لايستهويه من نزق الشباب ونزوات الفتوة ومغريات البيئة ما تهافت عليه أهل العصر عامة إلا من عصم الله . فنعمت به خير ما ينعم حبيب بحبيبه ، وحمدت الله على هذا التوفيق الذي أنساني هموم الحياة وغمرني بالمتعة الحقة ، وأوجد حولي جوا من الواقع يتسق مع ما كان يقوم في نفسي من أحلام المثل العليا التي أنشأتها في نفسي تلك البيئة الدينية الخاصة في انقباضها وتزمتها ، وزينتها في صدري غضارة القلب الناشيء السليم . . .

ولكني لا أكتمك أني كنت أحس في بعض الأحيان أنه قد احتجز لديه من أسراره سرا يطويه عني ، ويصطنع الحيطة والحذر في كتمانه وإخفاء وادره ، فكان يحيك لهذا في صدري شيء من الغيرة والألم ، ولكن ما كان أسرع ما يتلاشى في غمرة النعيم الروحي الذي يملأ قلبي ، فلا أرى أمامي إلا ذلك الرجل الفاضل المهذب ، وتلك الروح اللطيفة الصافية ، وذلك الضوء الساطع الذي يمتد فيما بيننا ويغمر ما حولنا ، وهكذا مضينا أعواما خمسة لم ينل من هذه الصداقة شيء . ولا تغير في عيني شيء من معاني الكمال الخلقي الذي كانت تتألق به نفسه ، ولم أعد أعبأ بذلك السر الذي كان في قرارة صدره وكان يخيل إلي أحيانا أنه سر امرأة ، إذ كنت أشم منه عبير الحب ، فلم أحاول مطلقا أن أسأله منه وما ندمت على شيء فيما بعد ندمي على إغفالي هذا

الأمر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالى لمعرفته فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئاً أتخذه قرباناً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجلها قربة ، ولكن الله غالب على أمره

ثم ضرب بيننا الدهر فطرحتنى بعض شؤون الحياة العاتية مطرحاً بعيداً ، فكنا نتراسل بما يقوم بحق الصداقة بعد أن حاول الزمن أن ينال منها ، وكانت تأتينى رسائله فينتزع لها قلبى ، وتسطع ألفاظها بمعانيها سطوعاً روحياً باهراً ، فأجد لها نشوة أى نشوة ، وأستشعر منها لذة لا نعد لها لذة ثم ... ثم أخذ شعورى بهذه اللذة يضعف ويتضاءل ، ثم إذا بى لا أرى ذلك النور الذى كان يتألق فى كلماته وعدت من بعد لا أقرأ فى رسائله إلا أحرفاً مجتمعة وعبارات مصطنعة ، لا أكاد أعرف لها معنى ، وأخذتنى لها غاشية من الألم والحيرة ، واتهمت نفسى بالنسيان ، ورميت قلبى بالملل ، وعالجته العلاج الشديد أن يعود إلى عهده من إدراك معانى الصداقة. ثم لم أدر بعد إن كان قد صدئ فلم تعد تلك المعانى تنجلى فيه وتنعكس عنه ، أو أن فى الأمر شيئاً وراء هذا يرجع إلى أن الصداقة قد فقدت قوتها الروحية وخلت من معانيها التى قامت عليها وشدت منها وحاطتها أبلغ الحياطة . وما زالت الحيرة تتردد بى بين شتى الفروض ولكن الرسائل كانت ما تزال تروح وتغدو فيما بيننا تحمل ما يتراسل به عامة الناس من كلام لا طعم له ولا روح فيه

* * *

ثم أتيحت لى العودة إلى مسارح ودى القديم بعد عام وبعض العام ، فعدت وأنا أشد ما أكون شوقاً إلى مطالعة صاحبى وتجديد العهد بذلك الجمال الروحى الذى فقدته ففقدت معه حظاً غير قليل من المتعة الصادقة والرَّوْح النفسى

وسارعت إليه ، فهش لى ، وتحفى بى ، وأجل تحيتى ، وبالغ فى تكرمتى . ولكنى كنت أشعر بذلك كله فى دخيلة نفسى ألفاظاً لا معنى لها ، وصورة للصداقة لا روح فيها ، وأنكرت من شخصه ما أنكرت بالأمس من رسائله ، وكأن لم يتغير شىء فى رأى قلبى . وحسبت هذا صنع الزمن ، فرجوت منه تجديد ما أخلقه

ولكن هيهات ...!

فلقد ترامت إلى الأخبار من كل وجه أن صاحبى قد حال أمره ، وتغير عهده ، وانتقضت عراه ، فأصبح من ذوى المجانة والعهر والتبطل ، وجعل حياته كلها فى أعقاب كل فاجرة ، وابتغاء كل مستهترة ، واقتناص كل سادرة . وجعل يبذل لهذا عن سمة من نفسه وماله لا يبالى ما أنفق منهما ، ولا يأبه لمصيبته فيهما ، ولا يراجع فى ذلك رأياً ، ولا يعبأ بعبرة مطوية أو مكتوفة . وذهب عنه كل ما عهده الناس فيه من رأى متزن وبصيرة نافذة ، فطوى كل قواه الفكرية ومواهبه النفسية فيما زين له من شهوة عاتية ونزوة طائشة

قيل لى هذا وروبت لى النوادر العجيبة والصور الطريفة من حياته هذه ، وأنا لا أكاد أصدق ما يرويه الناس ويؤكدونه ويتواترون عليه . فقد صحبته تلك المدة المديدة ، وخالطته مخالطة الأخ الأدنى ، كما سبق لى القول ، فما أنكرت عليه شيئاً تخزى منه الفضيلة ، ولا أخذت عليه ما يقدح فى خلقه أو مروءته ، ولقد أثبت أمره فاذا هو نقى الدخلة قد تشابه ظاهره وباطنه واستوى سره وعلنه ، فما باله اليوم ؟

أفي الممكن أن تتغير الأخلاق وتحول الطبائع وتتحول الشخصيات بهذه السهولة ، وفي عدة من الشهور قليلة ؟ أم كنت مخدوعاً في أمره ، معصوب العينين تجاهه ، وأنا أحسبني بصيراً به ، متثبتاً من حقيقته ؟ أفي الممكن هذا ؟ ذلك سر من أسرار النفس ، ولغز من ألغاز الحياة الانسانية ، وما أكثرها وأخطرها !

لقد ذهبت ألتمس التفسير من كل مظانه ، وأفلت أتحدث إلى هذا وذاك من أقاربه الأدنين في خاصة أمره ، وما عساه قد داخل حياته ولابس نفسه ، فأعياني أن أجد تفسيراً يطمئن إليه عقلي ، ويطرد مع ما أعرفه عنه ، فانصرفت عن هذا وفي نفسي من الحيرة بمقدار ما أجده من الألم له ، والفجيعة فيه ، واللوعة لمصابه ، وترحت على عهد كانت صداقتنا فيه كالغدير الصافي تنعكس عليه أشعة السماء

* * *

وافيته أصيل يوم من الأيام في طريقي إلى مرتاضي بظاهر المدينة ، وكنا نعتاده معاً من قبل . فاستصحبته فصحبني إليه ، حتى إذا غشيناه كانت الشمس قد غربت بمغربها ، وطلع البدر من مشرقه . ومرتاضنا هذا هو روضة على جانب طريق زراعي ، تقوم بها أشجار متشابكة الأغصان ، وتحفها شجيرات ملتفة الأفنان ، وتنتثر على أرضها أزهار مختلفة الألوان ، وقد جرى إلى جانبها غدير صاف يتألق في ضوء القمر وقد سطع علينا من سمائه ، فاجتمع لهذه الروضة جمال الأرض وجمال السماء ، وكانت نسماتها تتأرج بذكريات الود القديم ، فاجتمعت لنا منها متعة الحس ومتعة الروح . فجلسنا على مقعد وضع هناك ، وقد تركنا أنفسنا للذكريات تتناجى وتتجاوب ، حتى غمرتنا روح المكان ، وفنينا في جلال الذكرى وأحسست في قرارة قلبي بالضوء الجميل الذي كان يغمرنا حين كنا نجالس هذا المجلس من قبل . ثم بدأ صاحبي يتحدث أجمل حديث وأروحه على قلبي حتى كدت أنسى تماما انقلابه الأخير ، ولا أرى إلا عهداً من الود الصادق موصولا .

وبينا نحن كذلك لاح لنا ضوء سيارة على الطريق الزراعي تتوجه شطرنا ، حتى إذا حاذتنا أو كادت وقفت لتعود . وكان بها شاب حسن البزة ، متأنق الشباب ، وإلى جانبه فتاة بديعة القوام مشرقة الوجه ، وقد ألقى القمر عليها أشعته فبدت في أبهى منظر وأروع مجلى ورأيت صاحبي قد ألقى نحوها نظرة ثابتة مبهوتة لم يرجعها حتى دارت السيارة ورجعت أدراجها ، فزفر زفرة حرى والتفت إلي يقول :

— أرأيت هذه الفتاة ؟

— أجل ! وماذا تريد ؟ أطريدة جديدة تنصب لها شباكك ، وتمد لها أشراكك ؟

— معاذ الله ! بل معبد روحي ومحراب قلبي : حيل بيني وبينه ، فاندفعت في الطرقات اندفاع اليهم الجامحة

فسكت برهة أتأمل قوله ، فلم يكشف لي عن وجهه ، فاستوضحته معناه ، فأطرق لحظة حسبته يعالج فيها نفسه أشد العلاج ، ويراودها عن سر قامت دونه الحجب والأغلاق ، ولبثت أنتظر وأتأهب لسماع قصة مهمة تكشف لي عن ناحية من حياته . ثم التفت إلي يقول :

— أعني أنها كانت حبيبتي التي سيطرت على قلبي ، ثم ...

ولكني لم أدعه يكمل حديثه فقلت له :

— أيهن ؟ فهن كثر

فنظر إلي نظرة فيها معاني الألم والتوسل وقال لي :

« ناشدتك الله دعني من هذا التهكم والتأنيب وحسبي ما أشعر به في قلبي من لذع كلذع الجمر ، فان روح هذا المكان قد لبست ضميري فتفتحت فيه الحياة ، ولا والله ما أحببت إلا هذه الفتاة التي رأيتها ، والتي أنا محدثك عن أمري معها :

لقد عرفتها في ميعة السن ، وأحببتها في مطالع الشباب . ولست أذكر الأسباب التي وصلت بيني وبينها ، وهيأت لي سبيل حبها ؛ ولكني أذكر أنها مازالت تكبر في عيني وتعظم ، وما زالت تمتد معانيها وتتسع ملء الأفق ، حتى تألهت في رأي قلبي ، وغمرتني بأشعتها الساحرة فأحسست كأن نفسي مشتقة منها ، وكأن وجودي مندمج في وجودها . وجعلت لا أراها بعد إلا معنى متسقاً من الجمال والطهر والعظمة ، يبعث في نفسي معاني الحب والفضيلة والخضوع

وجعلت أدور في فلكها الساحر الجميل المتلألئ وما شعرت قط بالضيق به والرغبة عنه والتفلت منه ، إذ كان عالمي الذي لا أعرف عالماً سواه ، والذي اجتمعت لي فيه كل أسباب المتعة ومعاني اللذة ومظاهر الكمال

ولقد كنت فتى تملأ الفتوة عروقي وتهز أعصابي ، وكان جديراً بها أن تفعل بي فعلها الطبيعي ، فتوجهني تلك الوجهة التي يتجهها الشبان ، وتهوى بي ذلك المهوى الزاخر بشتى اللذائذ الجسمية ، وتقذفني إلى تلك السباحة التي يخف بها شياطين الانس والجن بوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ولكني كنت محفوفاً بروحها الملائكية ، محصوراً في فلكها السماوي ، مملوءاً بمعانيها الجميلة ، ولذائذ حبها البريء .

لقد كانت ملاك روحي ومسالك فضيلتي وشمس حياتي ، سواء في ذلك شهودها وغيابها وجلوتها وحجابها ، إذ كنت أحيا في شعوري بها وإحساسي بحبها . ولكني لا أذكر يوماً من أيام حبنا مضى دون أن أجلس إليها ، وأتمتع بطلعتها ، وأملأ قلبي بجمالها ونضرتها ، فكنت أرى هالة من النور تحيط بوجهها ، وعالماً من الفضل والشرف والجمال والكمال يقوم حولها ، فكنت أنظر إليها نظرة حب وإجلال معاً

وكنت أقرأ معها أحياناً بعض كتب الأدب فأشهد ما عرفت أستاذاً يشرح دقائق الفن كما كانت تشرحها هي في نظرة أو لمحة تحيط بالمعاني النفسية البعيدة ، فتجلوها أمام عيني كأنما صورها مصور صناع ملهم . يالله ! لقد كانت تحدثني بألفاظها ، حديثاً فيه متعة القلب والأذن ، وفيه جمال النغمة والمعنى ، وفيه الحبيبة بكل مظاهرها ومعانيها . أواه أواه من ألم الذكرى وفجيعة المصاب فيها !

لقد أباها على القدر فرماني بذلك الشاب الذي رأيته إلى جوارها : ساقه إلى خطبتها ، وزينه لأعين أهلها . فأتى الجالس ذات يوم وإذا بها مقبلة علي ، وفي عينيها آثار البكاء .

فجزعت وأخذتني اللوعة ، وأقبلت عليها أسائلها فقصت علي القصة ، وطلبت إلي أن أتقدم لطلب يدها عساي بذلك أبعد الخطر الداهم وعرفت حين ذاك أن ذلك الشاب موظف بوزارة الداخلية ، من أسرة متوسطة الحال ، يتقاضى مرتباً لا يتجاوز خمسة عشر جنيهاً . وقد رأها مرة في طريقه ، ثم ذكرت

له فتقدم إلى أبيها — وهو رجل ساذج غفل — وحوله حاشية كبيرة من هيبة الوظيفة ، وما يبثه الوهم من حولها ، وما يخلعه السماسرة عليها ، من الأضواء الساطعة والألوان الرائعة .

وتقدمت إلى الخطبة وأنا لا أكاد أشك فى النجاة والظفر ، إذ كنت أحسبنى معتصما بأقوى الأسباب فى مثل هذه الأمور ، من مجد الأسرة واتساع الثروة وشرف الاسم . وأما منافسى فما يملك إلا الوظيفة وأهون بها . ولكن خاب ظنى ، فان الوظيفة التى طغت على شتى نواحى الخير فى مصر ، وهزمت صفات الرجولة والشهم والإباء فى نفوس الناس ، قد أخلت بالموازين المعتبرة فى تقدير الرجال ، فشالت كفتى ، ورجحت كفة صاحبى ، فتعلل لى أهلوها بأن فلانا سبقنى إلى خطبتها ، وما هى والله إلا الوظيفة ومصيبتها وسوء أثرها فى أنظار الناس . فانصرفت وأنا أرانى قد أصبت فى قلبى بما حطمه تحطيما وتركه هشيما .

... وانتقلت صاحبتى إلى بيت زوجها ، ولم يلبث أن سافر بها إلى مقر وظيفته ، فانقطع ما بيننا تماما ، ووجدت هى فى بيتها وأسرتها ما يستأثر بروحها ونشاطها النفسى ، وأما أنا فاذا لقيت ؟

لقيت شر ما يلقاه امرؤ مما يسمونه رد الفعل

لقد طوحت بى تلك الصدمة العنيفة إلى الجهة المقابلة لما كنت فيه مما أحسبه أسمى حالات الخير والفضيلة ، فارتكست فيما ترانى فيه ، وتنكرت على ، من الخلاعة والتبطل ، والجرى وراء كل بنى طموح ، وكل طائشة مريبة ، وانطلقت غريزتى الجنسية فى كل طريق يفسح الهوى من جوانبه ، وتزيد الشهوة فى مذاهبه ، بعد أن كانت محبوسة من حب فتاتى فى مكان سحيق .

ويلاه ! لقد كنت وجدت فى حبها سببا يصلنى بالسماء وما تزخر به من الملائكة ، فلما انبتّ السبب هويت إلى الأرض أتعرض لنزغات الشياطين والأبالسة .

لقد كنت من حبها فى فلك سحرى جميل ، أدور به أينما درت فى حدود جاذبيتها تمسكنى أن أهوى أو أنحرف ، فلما ذهبت تلك الجاذبية عنى جعلت أتطوح هنا وهنا لا بمعصمى عاصم ولا يمنعنى شىء .

كنت معها ملكا فأصبحت بدونها شيطانا

كان قلبى منها فى محيط نورانى مشرق ، فأصبح من بعدها فى ظلمات بعضها فوق بعض »

وهنا أخذته الذكرى وبلغ به التأثر ، فلم يملك نفسه من البكاء ، وجعل ينشج نشيجا مرا ، وأنا أحاول تهدئته والتخفيف عنه ، حتى سكت عنه البكاء فأخذت بيده ، وأخذنا طريقنا إلى المدينة ، ومرنا فى صمت ظاهر ، تتكسر من تحته الخواطر ، وتتقلب فيه الصور والمعانى ، وجعلت قصة حبه تتردد فى خاطرى مختلطة بقصة صداقته وعهود وده . فذكرت ذلك السر الذى كان يحاول كتمانه ، وقد صدق فيه حدسى : إنه سر الحب الذى أترع له كؤوسه فى عالم الملائكة المقربين ، ثم تركه يهوى بين المردة والشياطين « وندمت أشد الندم على إغفالى هذا الأمر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالى لمعرفته ، فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئا أتخذه قربانا للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجلها قربة ، ولكن الله غالب على أمره »

محمد طه الحاجرى